بسم الله الرحمن الرحيم

النقد الأدبي في كتاب الحيوان

بقلم الدكتور مصطفى عبد الواحد

كان الجاحظ ناقدا أديبا يمثل عصره ويصدر عن ثقافته ، كما كان رائدا للنقد الأدبي تحمس للدفاع عن الحقيقة ودعا إلى التخلي عن العصبية ونبذ التحامل مناديا بسعة الافق والالتزام بمبادىء العلم وآدابه .

وليس سبيلنا فى هذا البحث أن نتحدث عن الجاحظ الناقد فنحن نلتزم بالحديث عن النقد فى كتاب الحيوان ، فلن نخرج عنه إلى غيره الا بمقدار ما يوضح الصورة أو يبرز جوانب الحقيقة الادبية . مع اعتبار أن كتاب الحيوان كان من آخر ماكتب الجاحظ فهو يمثل قوله الأخير ويعبر عن رأيه الذى آمن به بعد طول البحث والتفكير .

• ◉ •

ويقتضينا البحث أن نمهد بكلمة عن النقد الأدبي قبل الجاحظ لنتعرف الجديد الذى أضافه الجاحظ فى تراث النقد ، وخاصة فى كتابه الحيوان .

نعلم أن النقد قديم قدم الأدب ذاته ، فليس النقد فى أبسط صوره سوى تذوق العمل الادبي والحكم عليه بالجمال أو القصور ، فلا يخلو عصر من عصور الأدب العربي منذ الجاهلية من تناول للعمل الادبي بالنظر والحكم والتقويم فطرة فطر الناس عليها وسنة مطردة لاسبيل إلى تبديلها .

ففي الجاهلية كانت الاسواق والمجالس تحفل بالشعراء يتناشدون فيها وصفوة

المتذوقين يصدرون أحكامهم فيتقبلها الشعراء وتذيع فى الناس والشعراء أنفسهم ينقد بعضهم بعضا ويقوم بعضهم شعر البعض .

غير أن هذا النقد الجاهلي كان فطريا يتجه إلى الصياغة والمعاني ويعرض لها من ناحية الصحة والتلاؤم ، معتمدا فى ذلك على الذوق العربي والتقاليد التي توارثها الشعراء ، دون أن تكون هناك قواعد يتحاكمون اليها أو قوانين يلتزمون بها.

وظل الحال كذلك فى صدر الإسلام وشطر من العصر الاموى ، حتى اذا أصبح الشعر فنا مكتملا يعبر عن مظاهر الحياة جميعا ، وساعدت حياة الاستقرار والدعة على تذوقه والتعمق فى فهمه برزت الموازنات بين الشعراء لونا متميزا من ألوان النقد فى العصر الاموى وشغل بها الناس في المساجد والمجالس والأسواق .

وأكثر ما يروى من التراث النقدى فى العصر الاموى ينتمي إلى واحد من هذين الجانبين : الاستحسان أو الموازنة ، وقد تجد فيه من الأخبار النقدية مايدل على تطلع الناس إلى وضع مقاييس للنقد لغوية أو أسلوبية كذلك الخبر الذى رواه جعفر بن أحمد السراج عن غيلان بن الحكم قال : وفد علينا ذو الرمة ونحن بكناسة الكوفة فأنشدنا قصيدته الحائية . فلما انتهى إلى قوله :

اذا غير النأى المحبين لم يكـــد رسيس الهوى من حب مية يبرح

قال له ابن شبرمة : أراه قد برح . ففكر ثم قال :

اذا غير النأى المحبين لم أجـــد رسيس الهوى من حب مية يبرح

فرجعت بحديثهم إلى أبى الحكم البخترى بن المختار فقال : أخطأ ابن شبرمة حين رد عليه ، وأخطأ ذو الرمة حين قبل منه ، إنما هذا كقول الله عز وجل : « إذا أخرج يده لم يكد يراها » أى لم يراها ولم يكد (١) .

فهذا نقد للأسلوب الشعرى وفق معايير اللغة وهو لون من ألوان النقد له قواعده ومقاييسه فى الاسلوب والمعنى ، وعلى مثل هذا اعتمد بناء النقد بعد أن صار علما له مبادئه وقوانينه .

---

١ مصارع العشاق للسراج .

ولم يكن عجيبا في ذلك العصر أن تجد من آحاد الناس اطلاعا على عيوب الشعر وبصرا بمواطن الخطأ فيه ، كما روى السراج عن القحذمى قال : دخل ذو الرمة الكوفة فبينما هو يسير فى بعض شوارعها على نجيب له اذ رأى جارية سوداء واقفة على باب دار ، فاستحسنها ووقعت بقلبه ، فدنا اليها فقال : ياجارية اسقيني ماء .. فأخرجت له كوزا فيه ماء . فشرب فأراد ان يمازحها ويستدعى كلامها فقال : ياجارية ما أحر ماءك ! فقالت : لو شئت لأقبلت على عيوب شعرك وتركت حر مائي وبرده . فقال لها : وأى شعرى فيه عيب ؟ فقالت : ألست ذا الرمة ؟ قال : بلى . قالت :

فأنت الذى شبهت عنزا بقفرة ... لها ذنب فوق استها أم سالم
جعلت لها قرنين فوق جبينها ... وطبيين سودين مثل المحاجم
وساقين ان يستمكنا منك يتركا ... بجلدك ياغيلان مثل المياسم
أيا ظبية الوعساء بين جلاجل ... وبين النقا أنت أم أم سالم

فقال : نشدتك بالله الا أخذت راحلتي هذه وما عليها ولا تظهرى هذا . ونزل عن راحلته فدفعها إليها وذهب ليمضي . فدفعتها إليه وضمنت ألا تذكر لاحد ما جرى .

وهو نقد يتجه إلى التصوير ويبين أنه كان هناك ذوق أدبى يرى مواضع الجمال والقبح فى التصوير الادبي ويحكم على العمل الادبي حسب اجادته أو قصوره مما يدل على نضج ملكة النقد بين المتذوقين للشعر فأضحت لها قواعد غير مدونة يرجع اليها الناس فى اذواقهم وأحكامهم .

على أن حركة النقد الادبي قد نشطت فى أواخر القرن الاول على أيدى الجمهور من اللغويين والرواة الذين اهتموا بجمع التراث الفصيح للجاهلية وصدر الاسلام ليستخلصوا منه قاعدة أو ليستشهدوا به على قضية أو ليوازنوا فيه بين قول وآخر ، وكان هذا فى الحقيقة بمثابة تقويم لذلك التراث واختيار ما يجمع مقاييس الجودة

والجمال منه . فوضع ذلك التراث الادبي تحت مجهر النقد اللغوى والادبي ، وأدى ذلك إلى ازدهار حركة التذوق والموازنة والاختيار بين جماهير الرواة وأهل اللغة .

وكانت هذه الحركة الأدبية النشطة هى الاساس الذى اعتمد عليه الجاحظ الذى عـاش فى مطلع العصر العباسي أكثر من قرن من الزمان « ١٥٠ – ٢٥٥ هـ » فلم يكن أمام الجاحظ كتاب مؤلف فى معايير الشعر أو مقاييس نقد الأدب على وجه الاجمال . وكل ما كان أمامه حشد من الاشعار والأخبار الأدبية وذوق عام يستند إليه أهل الأدب فى أحكامهم وأقوالهم ، وكانت أداته فى تقرير حقائق النقد أو تناول قضاياه ملكته الأدبية الاصيلة ونظره النفاذ إلى اللفظ والمعنى ، مما جعله رائدا فى مجال النقد الأدبى يمثل نشأته ويعبر عن أعماقه ، رقم قلة القضايا النقدية التي تناولها فى كتبه وخاصة فى كتاب الحيوان .

• ● •

ونستطيع أن نصنف جانب النقد الادبي فى كتاب الحيوان إلى ثلاثة أنواع :
أولها – النقد النظرى ، أو مبادىء النقد ، وهو مقدار يسير .

ثانيها – النقد التطبيقي الذى يهتم بالاستحسان أو التفضيل أو التخطئة وهو المقدار الاكبر فى نقد الجاحظ .

ثالثها – النقد التاريخي الذى يتجه إلى تحقيق نسبة الشعر إلى عصره وقائله وكشف المصنوع منه ، حتى لايترتب عليه حكم يخالف البيئة والتاريخ .

ونبدأ بالنقد النظرى لنرى جهد الجاحظ فى تقرير الحقائق وطريقته فى الاحتجاج لآرائه والاستشهاد عليها ، ثم لنحدد قيمتها وأثرها فى اتجاه النقد الأدبي عند العرب .

اللفظ والمعنى :

وأول ما يلفت أنظارنا فى نقد الجاحظ النظرى فى كتاب الحيوان نظريته فى المفاضلة بين اللفظ والمعنى وبيانه للعلاقة بينهما « وهذه مسألة من مسائل علم الجمال

الحديث وشغل بها الاقدمون قبل أن يعالجها العرب» (١) .

وكان الجاحظ أول من عنى بتوضيح نظرته اليها وأكد ذلك فى مواضع كثيرة من كتبه وخاصة فى كتابيه : البيان والتبيين والحيوان .

وقد كان هناك فى عصر الجاحظ من يفضل المعنى على اللفظ ، أو من يرى أن مدار الحسن فى القول انما هو معناه ، ومن هؤلاء أبو عمرو الشيباني الذى ذكر عنه الجاحظ أنه استحسن بيتين من الشعر لاحظ لهما من جمال اللفظ أو رونق العبارة أو براعة التصوير ، وكل مافيهما معنى غريب يقرر أمرا لا يتبادر إلى الأذهان ، والبيتان هما :

لاتحسبن الموت مـــوت البـلى   فانما الموت سؤال الرجـال

كلاهمـــا مـوت ولكـن ذا   أفظع من ذاك لذل السؤال

وبلغ من استجادة أبي عمرو لهذين البيتين ، وكان فى المسجد يوم الجمعة أن كلف رجلا حتّى أحضره دواة وقرطاسا حتّى كتبهما له . أما الجاحظ فيرى « أن صاحب هذين البيتين لايقول شعرا أبدا . ولولا أن أدخل بعض الفتك (المجون) لزعمت ان ابنه لايقول شعرا أبدا » (٢) .

ويؤدى ذلك بالجاحظ إلى أن يعلن رأيه فى تفضيل اللفظ على المعنى وقصر الحسن على الالفاظ دون المعاني ، مادام التعبير الادبى ضربا من التصوير والصياغة :

« وذهب الشيخ (يريد أبا عمرو الشيباني) إلى استحسان المعنى والمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربي والبدوى والقروى والمدني . وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفى صحة الطبع وجودة السبك ، فانما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير (٣) .

---

١ النقد الادبي الحديث للدكتور محمد غنيمي هلال ص ٢٥٧ .
٢ الحيوان ٣ ـ ١٣١ .
٣ الحيوان ٣ ـ ١٣١ .

ويستدل على ذلك بأن كثيرين من الحكماء والعلماء لم يستطيعوا قول الشعر مع أنه لاريب في وقوعهم على المعاني واهتدائهم لكثير من الافكار :

« وقد قيل للخليل بن أحمد : مالك لاتقول الشعر ؟ فقال : الذى يجيئني لا أرضاه والذى أرضاه لا يجيئني . فأنا أستحسن هذا الكلام كما استحسن جواب الاعرابي حين قال له . كيف تجدك ؟ قال : أجدني أجدمالا أشتهي وأشتهي مالا أجد . وقيل لابن المقفع مالك لاتجوز البيت والبيتين والثلاثة ؟ قال : ان جزتها عرفوا صاحبها ! (١) » ومعنى ذلك أن مدار الجمال فى الشعر انما هو فى اختيار ألفاظه والتفنن فى تراكيبه » مما يدل على أنه لم يرد الالفاظ مفردة عن تراكيبها ولا التراكيب المتكلفة أو الخالية من المعاني (٢) » .

ويمكن القول بأن الجاحظ قد أنصف اللفظ فى جعله موطن الحسن فى التعبير الأدبي ، مادامت المعاني مشتركة بين الناس ومطروحة فى الطريق على حد تعبير الجاحظ ، وإلا لضاع جهد الشاعر فى الانتقاء وفقدت مزيته فى التخيل والتصوير ، غير أنه لم يفصل اللفظ عن المعنى فى حقيقة الامر ولم يفقد الصلة بينهما ، فلابد أن تكون بين الالفاظ والمعاني مناسبة تظهر فى الملاءمة بينهما ، أو رعاية مقتضى الحال فى التعبير ، كما قال : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ . ولكل نوع من المعاني نوع من الاسماء فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف . والجزل للجزل والافصاح فى موضع الافصاح والكناية فى موضع الكناية والاسترسال فى موضع الاسترسال (٣) » .

ومعنى ذلك ان الالفاظ لاتوصف بالشرف أو الضعة لذاتها ، بل يتوقف ذلك على الموضع الذى تستعمل فيه ، فاذا ناسبت الموقف وجرت مع مقتضى الحال فلا تعاب ولا تقبح ، واذا نبت عن ذلك فهى معيبة مستكرهة .

---

١ الحيوان ٣ ـ ١٣٢ .
٢ النقد الادبي الحديث د . محمد غنيمي ص ٢٧١ .
٣ الحيوان ٣ ـ ٣٩ .

فهناك علاقة لازمة بين الالفاظ والمعاني . بحيث لايمكن القول بانفصال بعضها عن بعض وهذا ما يوضحه الجاحظ بقوله : « وانما الالفاظ على قدر المعاني . فكثيرها لكثيرها وقليلها لقليلها وشريفها لشريفها وسخيفها لسخيفها (١) »

وهذا هو التصور الحق لعلاقة اللفظ بالمعنى ، فليس الجاحظ اذا بالذى يرى فضل اللفظ لذاته ولو خلا عن معنى أو كان أجوف لاشيء وراءه . بل يحكم الصلة بين اللفظ والمعنى هذا الاحكام الذى يقطع السبيل على المتكلفين والمتصنعين ويبين أن مراده من تفضيل اللفظ : أن وجه التفاوت بين الأدباء والشعراء انما هو فى التعبير والتصوير الذى يتضمن معنى ،أماالمعنى لذاته فلا فضل فيه لشاعر أو أديب اذا لم يفلح فى صوغه فى قالب جميل من الالفاظ المصورة .

« والجاحظ يشيد بقيمة المعنى فى غير موضع . مما يدل على أنه لم يعن باللفظ الا لجلاء الصورة الأدبية . ولهذه الصورة أوثق رباط بالمعنى (٢) » .

فكيف يفهم بعض الباحثين فى عصرنا ممن تصدوا للتأليف فى النقد الادبى أن الجاحظ اعتنق مذهب الصنعة ودعا اليه وكان تشيعه للفظ مظهرا من مظاهره (٣)! !

ان الرجل كما نرى لم يتكلم عن اللفظ لذاته ولم يجر على مذهب الصنعة فى أسلوبه ، وهو فى بحثه فى الصورة الادبية يحدد مقاييس الجمال التي يتفاوت بها قول عن آخر : أهى فى المعنى فحسب ، ولو خلا من التصوير الجميل وشابه لغة التخاطب بين الناس ؟

أم هي فى جمال اللفظ وحسن السبك وجودة التركيب فى الاسلوب بالاضافة إلى المعنى ؟ فهو لايناظر بين معنى مجرد من اللفظ ولفظ مجرد من المعنى . بل هو بسبيل تحديد موطن الجمال فى التعبير الأدبي ، وما أرى أحدا يدرك حقيقة الادب ،

---

١ الحيوان ٦ ـ ٨ .

٢ النقد الادبي الحديث ـ ص ٢٧١ وانظر في اشادة الجاحظ بالمعنى البيـــان والتبيين ـ ٨٣ ، ٨٥ ، ٨٨ ٩٢ ، ٤ ـ ٢٤ .

٣ د . بدوى طبانة : دراسات فى نقد الادب العربى ـ ص ١٣٩ الطبعة الثانية

يشك فى أن جمال التعبير الادبى انما هو فى صورته اللفظية دون ريب مهما كان المعنى الذى يحويه ! .

وأعجب من ذلك أن هذا الباحث يؤيد تصوره الخاطىء لموقف الجاحظ من اللفظ بخطأ آخر حين رأى الجاحظ ذكر فى كتابه الحيوان والبيان أيضا كلمة البديع فطار بها فرحا وظن أنه يقصد به وجوه حسن اللفظ والمعروفة :

« وفى سبيل الالفاظ والهيام بتصنيع الاسلوب الأدبي تكلم الجاحظ فى وسائل هذا التصنيع فذكر البديع وذهب إلى أنه مقصور على العرب ، كما أشاد بأصحاب البديع من الشعراء (١) »

فأى تصنيع هذا الذى يرى الباحث أن الجاحظ يدعو اليه وأى بديع هذا الذى أشاد به .

ان الجاحظ أراد بالبديع الذى ذكره فى كتاب الحيوان وكتاب البيان معنى آخر يخالف وجوه حسن اللفظ التي عرفت بعد ذلك وتميزت باسم « البديع » على يد عبد الله بن المعتز الذى ألف فيها كتابه الشهير والدليل على ذلك أن الجاحظ يقول فى كتاب الحيوان : » وقطعة من البديع قوله :

اذا حداها صاحبي ورجعـــا ... وصاح فى آثارها فأسمعـــا
يتبعــن منهن جلالا أتلعـــا ... أدمك فى ماء المهاوى منقعـا

وقال الراجز فى البديع المحمود :

قد كنت اذ حبل صبــاك مدمش ... واذ أهاضيب الشباب تبغـش

ومن هذا البديع المستحسن منه قول حجر بن خالد بن مرثد :

سمعت بفعل الفاعلين فلم أجـــد ... كفعل أبى قابوس حزما ونائلا
يساق الغمام الغر مـــن كل بلدة ... اليك فأضحى حول بيتك نازلا
فأصبح منه كل واد حللتـــــه ... وان كان قد خوى المرابيع سائلا

---

١ دراسات فى نقد الادب العربى ص ١٤٠ الطبعة الثانية .

فان أنت تهلك يهلك الباع والندى   وتضحى قلوص الحمد جرباء حائلا

فـــلا ملك ما يبلغنـــك سعيه   ولا سوقة ما يمدحنك باطلا (١)

فأى لون من ألوان الحسن اللفظى نراه فى هذه المختارات التى يطلق عليها الجاحظ اسم البديع حتى يمكن الزعم بأن الجاحظ دعا اليه وأشاد بأصحابه ؟ !

ان هذه الابيات انما تحوى أمثالا سارت بين الناس وأصبحت موضع استشهاد وموطن استحسان كقوله :

فان أنت تهلك يهلك الباع والندى   وتضحى قلوص الحمد جرباء حائلا

فهو بيت يتمثل به ويجرى معناه مجرى المثل . وكذلك قول الراجز :

واذ أهاضيب الشباب تبغش

أى تدفع مابها من الماء .

فاذا قال قائل : ان الجاحظ أطلق على هذه الابيات اسم البديع لما تحويه من استعارات جميلة . والبديع كان فى ذلك العصر يحوى كثيرا من وجوه البلاغة ، فنقول : ان الاستعارة تصوير يتعلق بالمعنى وليس لها تعلق بالحسن اللفظى الذى يريد الباحث أن يقنعنا بأن الجاحظ دعا اليه وتعصب للفظ من أجله .

والذى نراه أن البديع فى مفهوم الجاحظ هو الشعر الذى حوى تعبيرا مأثورا وصورة طريفة جرت مجرى المثل وصلحت للاستشهاد بها فى أكثر من مناسبة وتضمن ألوانا من الجمال التعبيرى يقدم من أجلها .

ولايمكن اعتبار الجاحظ بحال من دعاة الصنعة فى الشعر أو النثر وهو الذى جرى على الاسترسال فى أسلوبه وأطلق الزمام لمعانيه .

ورأى الجاحظ فى اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما هو أعدل مذهب فى هذه القضية التى أثارت كثيرا من الجدل فى القديم والحديث .

---

١ الحيوان ٥٧/٣ ـ ٥٩ .

والمهم أن نظرية الجاحظ فى اللفظ والمعنى والعلاقة بينهما كان لها تأثيرها فى النقاد من بعده وظلت هى النظرة المثلى لعلماء البلاغة والادب فى العصور الزاهية ويكفى أن نبين رأى آخر النقاد الذين يعتد بهم فى تاريخ النقد الادبي القديم وهو عبد القاهر الجرجاني ، فى قضية اللفظ والمعنى ليتضح تأثره بالجاحظ فيها وايمانه بمذهبه ودفاعه عنه .

فلم يكن عبد القاهر ممن يقفون عند حدود المعنى متجاهلين شأن الصياغة بل وافق الجاحظ فى أن العبرة فى الحكم بالجمال أو القبح على اللفظ وحده دون نظر إلى معناه ، ولذلك ينعى عبد القاهر على هؤلاء الذين يبحثون عن المعنى ويهملون الشكل الادبي الذى يعتبر معيار التفاضل ، فيقول :

« واعلم أن الداء الدوئ والذى أعيا أمره فى هذا الباب غلط من قدم الشعر بمعناه وأقل الاحتفال باللفظ وجعل لايعطيه من المزية ان هو أعطى الا ما فضل من المعنى يقول : مافى اللفظ لولا المعنى ؟ وهل الكلام الا بمعناه ؟ فأنت تراه لا يقدم شعرا حتى يكون قد أودع حكمة وأدبا واشتمل على تشبيه غريب ومعنى نادر ، فان مال إلى اللفظ شيئا ورأى أن ينحله بعض الفضيلة لم يعرف غير الاستعارة ثم لاينظر فى حال تلك الاستعارة « احسنت بمجرد كونها استعارة أم من أجل فرق ووجه ، أم للامرين ؟ قد قنع بظواهر الأمور (١) .

ثم يدلى برأيه فى تلك المسألة ويفصل الخلاف الذى طالما تردد بين البلاغيين والنقاد فيقول : « فان الأمر بالضد اذا جئنا إلى الحقائق وإلى ما عليه المحصلون لأننا لا نرى متقدما فى علم البلاغة مبرزا فى شأوها الا وهو ينكر هذا الرأى ويعيبه ويزرى على القائل به ويغض منه » (٢) .

ثم يعلل ذلك بأن سبيل الكلام سبيل التصوير والصياغة وأن سبيل المعنى الذى

---

١ دلائل الاعجاز ص ١٩٤
٢ المصدر السابق .

يعبر عنه سبيل الشيء الذى يقع التصوير والصوغ فيه . كالفضة والذهب يصاغ منها خاتم أو سوار ، فكما أن محالا اذا أنت أردت النظر فى صوغ الخاتم وفى جودة العمـل أو رداءته أن تنظـر إلى الفضة الحاملة لتلك الصورة أو الذهب الذى وقع فيه العمل وتلك الصنعة كذلك محال اذا أردت أن تعرف مكان الفضل والمزية فى الكلام أن تنظر فى مجرد معناه » .

وهكذا يتجلى اقتناع عبد القاهر برأى الجاحظ فى اللفظ والمعنى فى هذه الصورة التى شرح فيها نظرية الجاحظ واستدل عليها ودافع عنها ، ثم نراه يصرح بوعيه برأى الجاحظ واعتداده به حين يقول : « واعلم أنك لست تنظر فى كتاب صنف فى شأن البلاغة وكلام جاء عن القدماء الا وجدته يدل على فساد هذا المذهب – يقصد الاعتداد بالمعنى دوناللفظ – ورأيتهم يتشددون فى انكاره وعيبه والعيب به . واذا نظرت فى كتب الجاحظ وجدته يبلغ فى ذلك كل مبلغ ويتشدد وقد انتهى فى ذلك إلى أن جعل العلم بالمعانى مشتركا وسوى فيه بين الخاصة والعامة (١) » .

ثم يفصح عن المحذور الذى ينشأ عن القول بتقديم المعنى على اللفظ وإهمال حسن التصوير اكتفاء بجمال المعنى أو غرابتـه ، وهو انكار القول باعجاز القرآن والتسوية بينه وبين غيره من الكلام « واعلم انهم لم يبلغوا فى انكار هذا المذهب ما بلغوه الا لأن الخطأ فيه عظيم وأنه يفضى بصاحبه إلى أن ينكر الاعجاز ويبطل التحدى من حيث لايشعر (٢) . »

وبهذا يربط عبد القاهر قضية اللفظ والمعنى بعقيدة من أقدس العقائد وهى القول باعجاز القرآن بلفظه ونظمه ، وهى العقيدة التى وقف عبد القاهر كتابه دلائل الاعجاز عليها .

---

١ دلائل الاعجاز ١٩٦ – ١٩٧ .
٢ المصدر السابق .

ومن هذا يتبين أن الجاحظ هو أول من جعل للفظ قيمته فى العمل الادبي وأن رأيه فى ذلك كان هو القول الفصل الذى ارتضاه المحققون من النقاد والبلاغيين .

وأعجب أشد العجب من قول ذلك الباحث الذى أشرت إلى بعض أقواله آنفا فى تلك القضية ، فى كتاب له عن النقد الأدبي متحدثا عن موقف النقاد من رأى الجاحظ فى اللفظ والمعنى : « وعارضه فى رأيه جماعة ذهبوا إلى أن المعنى هو كل شيء وأن الالفاظ انما هى تبع للمعانى وخدم لها ومنهم عبد القاهر الجرجاني (١) .

كيف وعبد القاهر ينص على موافقته للجاحظ واقتناعه بمذهبه بل ودفاعه وتأييده له فى نصوصه التي اوردتها قبل ! .

اللهم الا أن يكون الظن والتخرص منهجا من مناهج البحث عند بعض الكاتبين .

• ● •

القدماء والمحدثون :

وهذه قضية أخرى من قضايا النقد التي كان الجاحظ فيها رائدا فى بحثه فاصلا فى حكمه مسددا فى رأيه وكان له الفضل فى اقامة ميزان الحق بين النقاد واطراح العصبية فى ميدان العلم والأدب ..

ففي عصر الجاحظ كانت المعركة مستعرة بين القديم والحديث .. القديم الذى يمثله رواة اللغة وحفظة الشعر الجاهلي وما إليه ، كأبي عمرو بن العلاء وابن الاعرابي والاصمعي واضرابهم ، وأولئك كانوا لا يقبلون للقديم بديلا ولا يصغون إلى شيء من أشعار المحدثين أو المولدين ولا يمنحونها اعتبارا أو قبولا ..

١ دراسات في نقد الادب العربي ص ١٣٩ الطبعة الثانية .
٢ الاغانى ٥ ـ ٧١ ط ساسى

والحديث الذى يمثله الشعراء المولدون الذين جددوا فى الاسلوب الشعرى وحرصوا على الزينة والتصنع والتنقيح . كبشار بن برد ومسلم بن الوليد وأبى نواس والعتابي وأشباههم ..

وكان أنصار القديم يزرون بأشعار المولدين ويعيبونها وما كانت تصلح لديهم للاحتجاج بها ، فلماذا يقبلون عليها ؟ وماذا يستفيدون منها وهم رواة لاهم لهم الا ابتغاء الشواهد فى أشعار القدماء يستخرجون منها المفردات ويحتجون بها على صحة التراكيب ..

وبلغ من تعصب هؤلاء الرواة أنهم كانوا يستسقطون أشعار المولدين ويرفضون روايتها إن كانت جيدة جامعة لأوجه الحسن فى لفظها ومعناها .

ومما يروى فى ذلك ما ذكره صاحب الاغاني أن اسحاق الموصلى أنشد الاصمعي هذين البيتين :

هل إلى نظرة اليـــك سبيـــل — يتروى منها الصدى ويشفى الغليل

ان ما قــل منك يكثر عنــــدى — وكثير ممن تحـــب القليـــــل

فقال الاصمعي : هذا الديباج الخسرواني ، هذا الوشى الاسكندرانى لمن هذا ؟ فأخبره اسحاق أن البيتين له ، فقال الاصمعي : أفسدته أفسدته ، أما ان التوليد فيه لبين » .

وكانوا لا يرون فى أشعار المحدثين قيمة تثبت على الايام ، بل كانت لديهم أشكالا ميتة لاتقوى على البقاء ، وهذا معنى قول ابن الاعرابى : « انما أشعار هؤلاء المحدثين مثل ابى نواس وغيره مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر ، كلما حركته ازداد طيبا (١) .

واذا ظفر المحدثون بكلمة اعجاب من هؤلاء الرواة ، فانها لاتبلغ مبلغ التحقيق أو الاقرار ، ولا تزيد على المجاملة المتأبيـــة على العدالة البعيـــدة عن

١ الموشح للمرزباني ص ٢٤٦ .

الانصاف ، فهذا شيخ أنصار القديم أبو عمرو بن العلاء يقول : « لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته (١) » وكان الانصاف يقتضيه رواية الجيد من الشعر سواء كان من محدث أو قديم .

ولقد كان بعض المحدثين يقف في وجه أنصار القديم مدافعا عن التجديد ساخرا من تقاليد القديم ، فهذا أبو نواس يسخر في شعره من رواة اللغة الذين كانوا يعيبون الجديد ، ويتهمونه باللحن في شعره (٢) ، ولم يكتف بذلك بل ثار على مطلع القصيدة العربية الذين كان يلتزم الوقوف على الاطلال ، ودعا إلى نبذ المظاهر الصحراوية التي لا تتفق مع البيئة الحضرية التي عاش فيها :

صفة الطلوب بِلاغــة القــدم ... فاجعل صفاتك لابنة الكرم
واذا وصفــت الشيء متبعــا ... لم تخــل من خطأ ومن وهم

ومع أن دعوته هذه لم تلق قبولا لدى شعراء عصره ولم يكن لها أثر في اتجاه القصيدة العربية الا أنها تعبر عن الصراع بين القديم والحديث في العصر العباسي وتدل على التيارات المختلفة التي كان ذلك العصر يزخر بها .

في ذلك الجو الملبد بغيوم التعصب المائج بمظاهر الصراع جاء الجاحظ ليقول كلمته في تلك القضية الخطيرة وليدلي برأيه في الفصل بين القديم والحديث .

فكيف كان قول الجاحظ ؟

لقد صرح الجاحظ برأيه في تلك القضية في أكثر من موضع في كتاب الحيوان تارة على وجه العموم وأخرى في الحديث عن شاعر بعينه ، وقد افصح الجاحظ عن موقفه من شعر المولدين أتم افصاح حين قال : « والقضية التي لا أحتشم منها ولا أهاب الخصومة فيها : أن عامة العرب والأعراب والبدو والحضر من سائر العرب أشعر من عامة شعراء الامصار والقرى من المولدة والنابتة ، وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه .

١ الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ ــ ٧ .
٢ ديوان أبي نواس ١٧٥ ــ ١٧٦

ولقد رأيت اناسا منهم يبهرجون أشعار المولدين ويستسقطون من رواها ولم أر ذلك قط الا فى راوية للشعر غير بصير بجوهر ما يروى ، ولو كان له بصر لعرف موضع الجيد : ممن كان وفى أى زمان كان » (١) .

وتلك هي العدالة فى النقد أوضح ماتكون ، لايميل الجاحظ إلى الهوى ولايجنح إلى العصبية ، بل يؤثر الجيد من أى شاعر كان وفى أى عصر قيل ، اتباعا لآداب العلم ومطاوعة للعقل والحكمة .

ولم يكن الجاحظ شاعرا حتى نقول انه يدافع عن نفسه ويحمى شعره من الاستسقاط والعيب ، بل هو ناقد يمسك بميزان الحكم ، ومن هنا كان لرأيه وزنه وتأثيره بين الادباء والنقاد .

وجريا على هذه القاعدة التي أعلنها الجاحظ فى موقفه من القديم والحديث ، فقد فضل الجاحظ بعض شعراء المولدين الذين كان الرواة من أنصار القديم يعيبون أشعارهم ويزورون عليها ، على شعراء الاعراب بل وبعض شعراء الجاهلية ! .

ويبدو ذلك جليا فى حديث الجاحظ عن أبي نواس ، وهو رمز الثورة على القديم فى العصر العباسي وأشهر من وقف فى وجه المحافظين من الرواة واللغويين

فالجاحظ يسوق من أشعار أبى نواس عشر طرديات متتابعة من أراجيزه التي يصف فيها خروجه للصيد بالكلاب المعلمة . ويفضله فى هذا اللون على غيره من الاعراب :

« وأنا كتبت لك رجزه فى هذا الباب لانه كان عالما راوية وكان قد لعب بالكلاب زمانا وعرف منها مالا تعرفه الأعراب وذلك موجود فى شعره وصفات الكلاب مستوفاة فى اراجيزه هذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة ، وان تأملت شعره فضلته الا أن تعترض عليك فيه العصبية أو ترى أن أهل البدو أبدا أشعر وأن المولدين لا يقاربونهم فى شيء ، فان اعترض هذا الباب عليك فانك لاتبصر الحق من الباطل مادمت مغلوبا (٢) » .

---

١ الحيوان ٣ ـ ١٣٠ .
٢ الحيوان ٢ ـ ٧٢ .

والجاحظ فى هذا الحكم ناقد يعلل حكمه ويجنح إلى الإقناع البعيد عن العاطفة، فأبو نواس فى نظره : عالم راوية وهو مجرب قد لعب بالكلاب وعرف منها مالا تعرف الاعراب ، ذلك عن جانب الموضوع فى الطرديات ، أما الشكل فقد كان أبو نواس مبرزا فيه ، لأنه جبيد الطبع وجيد السبك وحاذق بصنعة الشعر ، فأخلق به أن يكون شعره متميزا متقدما .

ثم يثير الجاحظ نزعة التأمل والتذوق فيمن يعرض للحكم على شعر ابى نواس ويحذره من اعتراض العصبية عليه أو تفضيل القديم لانه قديم واستسقاط المولد لانه حديث :

« وان تأملت شعره فضلته الا أن تعترض عليك فيه العصبية أو ترى أن أهل البدو أبدا أشعر وأن المولدين لا يقاربونهم فى شىء » وهذا نموذج رائع للنقد الموضوعي الذى يذكر أسباب التفضيل ويأخذ بمنهج العلم وينبذ العاطفة والهوى، وبه كان الجاحظ رائدا للنقد الأدبي شجاعا فى حكمه متحررا فى اتجاهه .

بل ان الجاحظ لا يبالى أن يفضل شعرا لابى نواس . وهو مولد على شعر لمهلهل بن ربيعة وهو جاهلى . حين ذكر شعر المهلهل فى اطراق الناس فى مجلس كليب وهو قوله :

أو دى الخيار من المعاشر كلهـــم — واستب بعدك يا كليب المجلس
وتنازعوا فى أمـــر كل عظيمة — لو قد تكون شهدتهم لم ينبسوا

ثم قال : « وأبيات أبى نواس على أنه مولد شاطر أشعر من شعر مهلهل فى اطراق الناس فى مجلس كليب وهو قوله :

على خبز اسماعيل واقية البخــــل — وقد حل فى دار الامان من الاكل
وما خبزه الا كاوى يرى ابنهـــا — ولم‌ترى‌آوى‌فى الحزون ولا السهل
وما خبزه الا كليب بن وائل — ليالى يحمى عــزه منبت البقـــل
واذ هو لا يستب خصمان عنده — ولا القول مرفوع بجدولاهزل (١)

١ الحيوان ٦ ـ ٣٢٧ .

وليس ذلك شأن أبى نواس وحده عند الجاحظ فكثيرا ما يستحسن أشعارا للمحدثين ويشيد بها ، ولو لم يكن أصحابها من المشتهرين فهو يذكر أشعارا للقدامى فى طول عمر النسر وضرب المثل به ، ثم يعقب ذلك بقوله : « وإن أحسنت الأوائل فى ذلك فقد أحسن بعض المحدثين وهو الخزرجى فى ذكر النسر وضرب المثل به (١) » . وكثيرا ما يذكر الجاحظ مختارات من أشعار المحدثين مستحسنا لها كقوله : « وأبيات للمحدثين حسان (١) وبعدها يورد أشعارا للعتابى وأبى نواس .

غير أن نقد الجاحظ لم يخل من ملاحظات على أشعار المولدين فى مجموعها ، حين تقارن بأشعار أهل البدو من جهة المتانة وقوة التراكيب ، وذلك فى قوله :

« إن الفرق بين المولد والأعرابى أن المولد يقول بنشاطه وجمع ماله الابيات اللاحقة بأشعار أهل البدو . فاذا أمعن انحلت قوته واضطرب كلامه (٢) » .

وذلك لا يصدق على كل فرد من المولدين ، فهناك من فاقوا الاعراب والجاهليين منهم ، كأبي نواس فى نظر الجاحظ ، غير أنها ظاهرة قد تبدو فى البعض فى أغراض معينة .

وجملة القول أن الجاحظ كان قاضيا عادلا بين القدامى والمحدثين وكان داعية إلى تذوق الجيد من كل شاعر وعصر وتلك دعوة كان لها أعمق الاثر فى الشعر والنقد على السواء ، فلو أن الناس طاوعوا أنصار القديم ووقفوا من الجديد موقف الانكار لكان فى ذلك قضاء على الابداع الفنى وجمود عند الشعر القديم فلا تتجه الانظار الا إلى شكله ولا تصغى الأسماع الا إلى صوته ، ولو كان ذلك لما وجد الشعراء داعيا إلى قول الشعر ولا الإجادة فيه مادامت أشعارهم لاتقع عند الناس بموقع ولا تنال حظا من الرضا والاستحسان .

---

١ الحيوان ٣ ـ ٦٢ .
٢ الحيوان ٣ ـ ١٣٢ .

ولو أن النقاد آمنوا بدعوة أنصار القديم لغضوا أبصارهم عن كل حديث وان نظروا إليه فبعين السخط ، وميزان الجور ، فأى خطر كان يصيب الشعر والنقد وأى خسار يلحق بميزانه ؟! .

لكن صوت الجاحظ ارتفع بين الشعراء والنقاد ليعلن أن مقياس النقد الصحيح لا يتأثر بقديم أو حديث ولا شأن له بشخص أو عصر ، فالنقد الادبى هو كشف مواطن الجمال أو القبح فى العمل الادبي أيا كان عصره ولونه .

• ◉ •

وقد كان لصيحة الجاحظ هذه أثرها فى النقاد من بعده ، وفى اتجاه النقد نحو الموضوعية وبراءته من العصبية والهوى ، وأشهر النقاد الذين آمنوا بمذهب الجاحظ فى القديم والحديث وبرئوا من التعصب للقديم الإمام أبو محمد عبد الله ابن مسلم بن قتيبة ٢١٣ – ٢٧٦ هـ ، وقد كان معاصرا للجاحظ أدركه فى شيخوخته وكان ابن قتيبة اذ ذاك فى أوج شبابه ، فلابد أنه قرأ للجاحظ الذى كان أشهر أديب يؤلف فى ذلك العصر وطبقت كتبه الآفاق، ويدل على ذلك أن رأى ابن قتيبة فى القديم والحديث مطابق تماما لرأى الجاحظ ويكاد أن يكون دفاعا عنه وشرحا له . فهو يقول :

« ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه .

فانى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه فى متخيره ويرذل الشعر الرصين ولاعيب له عنده الا أنه قيل فى زمانه أو أنه رأى قائله .

ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولاخص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر وجعل كل قديم حديثاً فى عصره وكل شرف خارجية فى أوله ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين .. ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد عنهم

كما لم يفصل القول فيمن أخذ معنى فأضاف اليه جديدا هل يعد سارقا أم مبتدعا وغير ذلك من الجزئيات التي تتصل بموضوع الاسترِاق الشعرى والتي كثر عنها الحديث فى كتب النقد العربي .

وحسب الجاحظ أنه كان أول من سجل ظاهرة السرقة الشعرية فى المعاني والالفاظ وأشار إلى أنواعها العامة وإلى دفاع من يتهم بالسرقة من الشعراء .

وعذر الجاحظ فى ترك التفصيل فى هذا الموضوع أنه ذكره عرضا فى كتاب الحيوان حين أراد أن يبين تفرد عنترة فى صفة الذباب بحيث لم يستطع أحد أن يحاكيه فى ذلك : « فانه وصفه فأجاد صفته فتحامى معناه جميع الشعراء فلم يعرض لهاحد منهم . ولقد عرض له بعض المحدثين ممن كان يحسن القول فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ومن اضطرابه فيه انه صار دليلا على سوء طبعه فى الشعر ! فقال عنترة :

جادت عليها كل عين ثـــــرة فتركن كل حديقة كالدرهـــم
فترى الذباب بها يغنى وحـــده هزجا كفعل الشارب المترنم
غردا يحـــك ذراعه بذراعــــه فعل المكب على الزناد الاجذم

ولم أسمع فى هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعر عنترة (١) فلم يكن بامكانه فى هذا الوضع ان يطيل القول فى موضوع السرقات وأن يفصل أحواله مادام يريد ان ينوه بتفرد عنترة فى وصف الذباب وأن جميع الشعراء من بعده لم يستطيعوا مقاربة معناه فضلا عن مجاوزته .

• ● •

فإذا أردنا أن نتبين صدى قول الجاحظ فى موضوع السرقات فيمن جاء بعد من النقاد فلن نجد أحدا منهم قريبا من عصره استطاع أن يشفى النفس فى أمر السرقات وأن يكون حكما عدلا بين الشعراء فيه الا القاضي على بن عبد العزيز الجرجاني. « ٢٩٠ — ٣٦٦ هـ » فى كتاب : « الوساطة بين المتنبي وخصومه » فقد استوفى القول فى معنى السرقة الادبية وفصل أنواعها ومتى تعد ممدوحة أو مذمومة وكيف

---

١ الحيوان ٤ — ٣١١ — ٣١٢ .

يمكن تبين السرقة ولو كانت بقلب المعنى أو فى غرض غيره . وهو فى بعض قوله فيها يوافق الجاحظ تمام الموافقة ويسير على منواله وذلك قوله :

« والسرق — أيدك الله — داء قديم وعيب عتيق . ومازال الشاعر يستعين بخاطر الآخر يستمد من قريحته . ويعتمد على معناه ولفظه . وكان أكثره ظاهرا . كالتوارد الذى صدرنا يذكره الكلام وان تجاوز ذلك قليلا فى الغموض لم يكن فيه غير اختلاف الالفاظ فهذه نفس معانى الجاحظ التي تضمنها قوله فى السرقات الذى أثبته آنفا . ولا نريد أن نقول ان الجرجاني نقل عن الجاحظ . فمثل الجرجاني فى عقله وأدبه لا يستبعد عليه أن يهتدى إلى هذه المعاني فى قضية شائعة لاتخفى على من يتصدى للنقد الادبي ويفصل فى قضاياه .

ولكننا نقول أن هذه افكار الجاحظ فى قضية السرقات سار عليها من بعده وان اتسع امامهم مجال التصنيف فى النقد الادبي على حدة . أما الجاحظ فقد كان منهج الاستطراد والرواية يغلب عليه فجعله لايستوفى القول فى موضع واحد .

نظريات أخرى :

ويبقى بعد ذلك فى كتاب الحيوان لمحات من النقد النظرى لم يقف عندها الجاحظ لانه لم يقصد التركيز عليها ، ولبعض هذه النظريات اتصال بعلوم البلاغة . ولم تكن قد تميزت بعد بالدراسة والتأليف ولانريد ان نطيل النظر فيها ولا أن نتتبع حديث النقاد والبلاغيين عنها . لان ذلك أمر يطول فى غير طائل . وانما نشير فحسب إلى وعى الجاحظ بها وعنايته بالحديث عنها .

فهو يتحدث عن حد الاطالة والايجاز ، وهى مسألة عولجت فى علوم البلاغة من بعد . ولكن الجاحظ يشير اليها في لمحة خاطفة بقوله :

« وليس بإطالة ما لم يجاوز مقدار الحاجة ووقف عند منتهى البغية » (١) .
ويعنى ذلك من وجهة نظر الجاحظ أن الموقف هو الذى يحدد موقع الكلام من

١ الحيوان ٦ ــ ٧ .

الايجاز أو الاطناب ، وليس الايجاز عنده التوصل إلى المعنى بأقل عبارة ، وليست الاطالة هي فى زيادة الحروف على المعاني ، بل الحكم عنده فى ذلك هو مقتضى الحال الذى يدعو إلى بسط القول أو ضيقه .

وهذا المقياس من مقاييس نقد النثر لان الاطالة والايجاز انما تكون فى النثر أما الشعر فمبناه على زيادة الالفاظ لتصوير المعنى أوضح تصوير ، وهذا يدل على أن الجاحظ كان يمارس النقد الادبي فى جانبي الشعر والنثر (١) وهما يجمعان فنون القول الفنى فى كل لغة وأدب .

ومن لمحات الجاحظ التي تمت إلى النقد بصلة كذلك قوله : « وليس ينبغي للعاقل أن يسوم اللغات ماليس فى طاقتها » .

وهى عبارة على إيجازها جديرة بالوقوف عندها اذ هي تعنى الكثير وراءها ، من فكر الجاحظ وأصالته فى التأمل والتذوق .

ولعله يريد بها أن للكلمات قدرة محدودة فى التصوير والتعبير ، فلكل كلمة مدلولها اللفظى الذى تقف عنده ، وهى اذا ركبت مع غيرها فى جملة فلها مدلولها كذلك ، والمهارة الفنية فى التعبير الادبى أن يحسن الكاتب أو الشاعر استغلال طاقة الكلمات إلى أقصى حدودها بحيث يستخرج منها ما يمكنه من الايحاء والتأثير .

كذلك فقد أشار الجاحظ إشارة عابرة إلى مقياس من مقاييس النقد الادبي كثر الخلاف حوله فى القديم والحديث وهو إنفصال المعيار الفني عن المعيار الخلقي ، فالادب تعبير جميل ولو كانت التجربة التي يحتويها مسفة أو مجافية لروح الدين والخلق ، وان خالف فى ذلك بعض النقاد فى عصرنا ، فرأوا فى اسفاف التجربة فى الشعر مايهبط بقدره ويحط من قيمته . فقد روى الجاحظ عن بعض الاعراب وشعرائهم أنه قال فى أمه :

فما أم الردين وان أدلت ... بعالية بأخلاق الكرام
اذا الشيطان قصع فى قفاها ... تنفقناه بالحبل التؤام

---

١ وفي كتاب البيان والتبيين تفصيل لكثير من مقاييس النقد الادبي في النثر .

يقول : اذا دخل الشيطان فى قاصعاء قفاها تنفقناه أى أخرجناه من النافقاء بالحبل المثنى .

ثم يقول الجاحظ : « وقد مثل ، وقد أحسن فى نعت الشعر وان لم يكن أحسن فى العقوق (١) .

فهذا يدل على إيمان الجاحظ بأن الشعر تصوير وعلى اجادته يتوقف الحكم عليه ، أما موضوعه وارتباطه بالقيم الخلقية والدينية فلا مدخل له فى الحكم عليه بالجودة أو الرداءة .

وهذا يؤدى بنا إلى نظرة مجملة إلى موقف الجاحظ من قضية الادب المكشوف فى كتابه . فالقارىء لكتاب الحيوان يلحظ أن الجاحظ قد أفسح فيه المجال لكثير من أشعار المجون وأخباره ، مع أنه كان فيما يظهر منه من أهل الحفاظ على الدين . كما أنه كان تقيا تتضح نبرة الايمان والاستقامة فى قوله . فما الذى دعاه إلى هذا التسامح فى رواية الأدب الذى لا يستقيم مع مبادىء الدين وأخلاقه ؟ ان الجاحظ يرد على ذلك ويبين أنه لا بأس من رواية هذا الادب فى موضعه وهو الترويح والاستطراف . ويعجب من هؤلاء الذين يظهرون التورع والتقزز من سماع هذا اللون أو روايته مع أن بواطنهم — كما يرى الجاحظ — مدخولة وقلوبهم سقيمة : « وأكثر من تجده كذلك فانما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار الا بقدر هذا الشكل من التصنع ، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق الا عن لؤم مستعمل ونذالة متمكنة (٢) ثم يضرب المثل بعبد الله بن عباس فى انشاده بيتا من الأدب المكشوف ثم اعتذاره بقوله : انما الرفث ماكان عند النساء ؛

وقال الضحاك : لو كان ذلك القول رفثا لكان قطع لسانه أحب اليه من أن يقول هجرا (٣) .

١ الحيوان ٦/٣٩٦ ـ ٣٩٧ .
٢ الحيوان ٣ ـ ٤٠ .
٣ المصدر السابق .

وكذا استشهد على بن أبي طالب رضي الله عنه بمثل مشهور ولم ير فى ذلك غضاضة : « علي رضي الله تعالى عنه – يعول فى تنزيه اللفظ وتشريف المعاني(١)

ثم يستخلص الجاحظ من ذلك قاعدة فى رواية هذا النوع من الأدب فى مواضعه التي تستدعيه بحيث لايعد مسترذلا ولا معيبا فيقول :

« ولو كان ذلك الموضع موضع كناية (لكانت) هى المستعملة وبعد فلو لم يكن لهذه الالفاظ مواضع استعملها أهل هذه اللغة وكان الرأى ألا يلفظ بها لم يكن لاول كونها معنى الا على وجه الخطأ . ولكان فى الحزم والصون لهذه اللغة أن ترفع هذه الأسماء منها ، وقد أصاب كل الصواب الذى قال : « لكل مقام مقال (٢) .

ومعنى ذلك أن الجاحظ لايستسقط رواية هذا الأدب الصريح الذى يتورع منه بعض الرواة مادام ذلك فى مجال الاستطراف والترويح ودون قصد إلى الاغراء بالفساد أو الانحراف عن مبادىء الدين والاخلاق ، فالقيمة الفنية عنده منفصلة عن القيمة الخلقية ، ومن هنا ترخص فى رواية هذا القدر الكبير من الأدب الصريح فى كتابه ، ولم ير فى ذلك خروجا على الدين أو ازراء بالحياء والخلق . وإن كنا نخالفه فى ذلك، فالأدب تعبير جميل عن معنى جميل بل إن بعض النقاد الأوروبيين المعاصرين يرفضون هذا الإسفاف ، ولبحث هذه القضية مجال آخر .

النقد التطبيقي :

وننتقل إلى النوع الثاني للنقد الادبي فى كتاب الحيوان . وهو النقد التطبيقي الذى يعنى بالحكم على العمل الادبى بالرداءة أو الجودة . وهو قدر كبير فى الكتاب . والجاحظ يرجع فيه إلى ذوقه فى أغلب الاحيان وإلى قواعد يمكن تبينها وإن لم يصرح برجوعه إليها فى البعض الآخر .

وأغلب أحكام الجاحظ بالاستحسان غير معللة . فكان يقف عند حد الاعجاب أو التفضيل دون بيان لاسباب الجودة أو لفت إلى طابع الحسن فما يستحسنه وهذا هو طابع النقد القديم فى أعم أحواله .

١ الحيوان ٣ ـ ٤٢ . ٢ الحيوان ٣ ـ ٤٣ .

فمن ذلك : أنه يروى أبياتا للشماخ بن ضرار فى صفة الحر :

كأن قتودى فوق جـأب مطرد | من الحقب لاحته الجداد الغوارز
طوى ظمأها فى بيضة القيظ بعدما | جرت فى عنان الشعر بين الاماعز
وظلت بيمؤود كـأن عيونهـا | إلى الشمس هل تدنو ركى نواكز

ثم يقول : « ولهذه الأبيات كان الحطيئة والفرزدق يقدمان الشماخ بغاية التقديم (١) .

فقد كان بامكانه أن يفصح عن مواطن الجمال فى التصوير فى هذه الابيات وأن يبين فضلها على غيرها فى أداء المعنى ، أو يرشد إلى البديع المخترع فيها لكن أحكام النقاد القدامى كانت هكذا موجزة غير معللة ، وما كانوا يلقون بالا إلى التعليل والتحليل .

وهو يفضل الفرزدق ويصف شعره بالقوة فى القصار والطوال منه بعد أن ذكر له ثلاث مختارات قصار ، كقوله :

وقالت أراه واحدا لا أخالـه | يؤمله فى الوارثين الأباعـد
لعلك يومـا أن تريني كأنمـا | بنى حوالى الاسود الحـوارد
فان تميمـا قبل أن يلـد الحصى | أقـام زمانا وهو فى الناس واحد

وقولـه :

فان كان سيف خان أو قدر أتى | لميقـات يوم حتفه غير شاهـد
فسيف بنى عبس وقد ضربوا به | نبا بيدى ورقاء عن رأس خالد
كذاك سيوف الهند تنبو ظباتهـا | ويقطعن أحيانا مناط القلائد (٢)

ثم يقول : « وان احببت أن تروى من قصار القصائد شعرا لم يسمع بمثله فالتمس ذلك فى قصار قصائد الفرزدق ، فانك لم تر شاعرا قط يجمع التجويد فى القصار والطوال غيره (٣) ».

١ الحيوان ٥/٧٩ ـ ٨٠ .
٢ الحيوان ٣/٩٦ ـ ٩٧ .
٣ الحيوان ٣ ـ ٩٨ .

وهو يرى فى ذلك ميزة للفرزدق لم تتيسر لغيره . فهناك من يجيد فى الطوال ولايجيد فى القصار ، والجاحظ يرفض قول الكميت حين سئل : ان الناس يزعمون انك لاتقدر على القصار . فقال : من قال الطوال فهو على القصار أقدر ، فعنده أن هذا الكلام يخرج فى ظاهر الرأى والظن ولم نجد ذلك عند التحصيل على ماقال(١)

فهو أيضا حكم عام لايجنح إلى الاستدلال أو الموازنة التي تحدد مظاهر التفوق والقوة . وحسبه أن يفضل شاعرا على غيره استنادا إلى ذوقه وصدورا عن تأثره ومن هذا القبيل من النقد الذى لايكشف أسباب الحسن حكم الجاحظ على قصيدة للمرار أو العكب التغلبي . بأنها أجود قصيدة فى القطا وأولها :

بلاد مروراة يحار بهـا القطـا ... ترى الفرخ فى حافاتها يتحرق
يظل بهـا فرخ القطاة كأنـه ... يتيم جفا عنه مواليـه مطـرق
بديمومـة قد مات فيهـا وعينه ... على موته تغضى مرارا وترمق
شبيه بلا شيء هنالك شخصـه ... يواريه قيض حوله متفلـق(٢)

ولانطيل باستقصاء مواضع استحسان الجاحظ فى الكتاب كله . فهى تسير على نفس المنهج فى الجنوح إلى التعميم والابتعاد عن التعليل فى حكمه .

وقليلا ما نجد فى استحسان الجاحظ تعليلا أو إشارة إلى موطن الجمال كتفضيله لشعر عبد يغوث بن صلاءة الحارثى وطرفة بن العبد وهدبة العذرى « فان شعرهم فى الخوف لايقصر عن شعرهم فى الامن وهذا قليل جدا (٣) .

ويستدل على جودة شعر هدبة هذا بأنه قال وقد أمر بضرب عنقه وشد خناقه :

فأب بى إلى خير فقد فاتني الصبا ... وصيبح بريعان الشباب فنفـرا
أمور وألوان وحال تقلبـت ... بنا وزمان عرفه قد تنكـرا
أصبنا بما لو أن سلمى (٤) أصابه ... لسهل من أركانه ما توعـرا

١ المصدر السابق .
٢ الحيوان ٥ـ٥٨٤ .
٣ الحيوان ٧ـ١٥٧
٤ سلمى : جبل لطيء .

وقال أيضا في تلك الحال :

سأذكر من نفس خلائـــق جمة ... ومجدا قديما طالما قد ترفعـــــا
فلم أر مثلي كاويا لدوائـــــــه ... ولا قاطعا عرقا سنونا وأخدعـــا
وماكنت ممن أرث الشر بينهــــم ... ولا حين جد الشر ممن تخشعـــا
وكنت أرى ذا الضغن ممن يكيدني ... اذا ما رآني فاتر الطرف أخشعا

« وقليلا ماترى مثل هذا الشعر عند مثل هذه الحال ، وان امرءا مجتمع القلب صحيح الفكر عضب اللسان في مثل هذه الحال لناهيك به مطلقاً غير موثق وادعا غير خائف» (١) .

• ◉ •

أما التخطئة والاستقباح فقد نجد لدى الجاحظ احكاما معللة بشأنها يبين فيها وجه الخطأ ويحتج لرأيه بتحليل المعاني وبيان موقعها من الصواب او الخطأ فهو يرى من الخطأ في المديح الذى لم ير أعجب منه قول الكميت بن زيد في مديح النبي صلى الله عليه وسلم :

وقيل أفرطت بل قصدت ولـــو ... عنفني القائلون أو ثلبـــــوا
اليك يا خير من تضمنت الارض ... ولو عاب قـــولي العيـــب
لج بتفضيلك اللســـــان ولـــو ... أكثر فيك الضجاج واللجـــب

« فلو كان مديحه لبني أمية لجاز أن يعيبه بذلك بعض بني هاشم ، أو لو مدح به بعض بني هاشم لجـــاز أن يعترض عليه بعض بني أمية ، أو لو مدح أبا بلال الخارجى لجاز أن تعيبه العامة ، أو لو مدح عمرو بن عبيد لجاز أن يعيبه المخالف أو لو مدح المهلب لجاز أن يعيبه أصحاب الأحنف فأما مديح النبي صلى الله عليه وسلم فمن هذا الذى يسوؤه ذلك » ؟! (٢) فقد أوضح الجاحظ هنا أن الشاعر خالف الحقيقة حين صور في شعره أنه سيبلغ أقصى جهده ولو عنفه في ذلك اللائمون واعترض عليه المعترضون اذ يرى أنه ليس هناك من يعنف الشاعر على إفراطه في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

١ الحيوان ٧ـ١٥٦ .
٢ الحيوان

ولكني أرى أنه لا يتعين أن يكون الكميت مخطئا فى هذا القول بدليلين :

أولهما : أنه قال : « ولو عنفني » « ولو اكثر » ولم يقل : « وان ..... » وبينهما فرق واضح فى الوقوع والامكان .

ثانيهما : أن تأمل التجربة التي صدر عنها الكميت فى هذا الشعر تعيننا على فهم موقفه من هذا التعبير ، فهو شاعر لهج بحب الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته ، وكان حبه لآل البيت واختصاصهم بالمديح يجلب له كثيرا من اللوم والذم ممن كانوا ينازعون بنى هاشم ، كما صرح بذلك فى قوله :

بنى هاشم رهط النبي فـــــاننى ... بهم ولهم أرضى مرارا وأغضب

وكنت لهم مـــن هؤلاء وهؤلا ... مجنا على أنى أذم وأقصـــــب

فقل للذى فى ظل عمياء جونـــة ... ترى الجور عدلا؟ أين لاأين تذهب

بـــأى كتـــاب أم بأيـــة سنـــة ... ترى حبهم عارا على وتحســـب

فهو فى مدحه للرسول صلوات الله عليه يعكس ما كان يلاقيه من نصب فى محبته لآل البيت كأنهم كذلك يعيبونه فى حبه للرسول ومدحه له ، لأنه ما يمدح آل البيت الا لانتسابهم إلى الرسول صلوات الله عليه فهناك دفعة شعورية من نفس الشاعر جعلته يهتف بحبه للرسول ويعلن تفضيله له ولو خالف فى ذلك المخالفون ، وأيا ما كان الأمر فان هذا النوع من النقد المعلل يدخل فى نطاق النقد الموضوعي ، ومنه يمكن أن نستخرج قواعد النقد العربي القديم ومقاييسه فى نقد اللفظ والمعنى .

ومن هذا القبيل تخطئته للنابغة الذبياني فى قوله فى اتباع سباع الطير للعسكر :

« ولا نعلم أحدا منهم أسرف فى هذا القول وقال قولا يرغب عنه الا النابغة فانه قال :

جوانح قد أيقـــن أن قبيلــــــــه ... اذا ما التقى الجمعان أول غالب

وهذا لانثبته ، وليس عند الطير والسباع فى اتباع الجموع الا ما يسقط من ركابهم ودوابهم ، وتوقع القتل اذ كانوا قد رأوا من تلك الجموع مرة أو مرارا، فأما أن تقصد بالامل واليقين إلى أحد الجمعين فهذا مالم يقله أحد (١) » .

ولا أدرى لمَ لم يحمل الجاحظ قول النابغة هذا على المبالغة وهى مبالغة سائغة كما نرى ، فكأن الطير قد تعودت من هذا القبيل أن يطعمها من لحوم أعدائه فهى صورة طريفة من المدح ولا يعقل أن يكون النابغة قصد منها حقيقة اليقين والعلم ولعل الجاحظ نظر إلى الحقيقة العلمية فى هذا الشعر قبل ان ينظر إلى جانب الادب فيه

ويتضح من بعض ما أورده الجاحظ من النقد الذى يبرز العيوب بعض مقاييس نقد المعنى عند العرب ، فمن ذلك الخروج عن العقيدة ومناقضة ما أجمعت الأمة عليه ، مما يعد زندقة أو كفرا . وقد ذكر الجاحظ لذلك شواهد مختلفة من شعر ابى نواس وهى مشهورة لدى الباحثين وقد أنكرها عليه النقاد فى عصره .

ومن ذلك الخطأ فى التشبيه كان يؤتى به معكوسا كقول أبي نواس أيضاً :

أستخبر الدار هـــل تنطـــق ... أنا مكـــان الدار لا أنطـــق
كأنهـــا اذ خـــرست جـــارم، ... بين ذوى تفنيـــده مطـــرق

فعابوه بذلك ، وقالوا : لايقول أحـــد : لقد سكت هـــذا الحجر كأنه انسان ساكت وإنما يوصف خرس الانســـان بخرس الدار ، ويشبه صممه بصمم الصخر .

وإن كنت أرى أن أبا نواس فى هذا التشبيه قد أضفى على الدار حياة وصور موقفه منه ، فسكوتها سكوت ملوم لايجد جوابا ، كأنه يعاتبها : كيف أقفرت

١ الحيوان ٦ ـ ٣٢٥ .
٢ أنظر الحيوان ٤ ـ ٤٥٤ ، ٤٥٦

من أحبابه وكيف أقامت بعدهم ، فهو يشخص الطبيعة الجامدة ويتراسل معها ، ويضع نفسه موضعها ، بدليل قوله : « أنا مكان الدار لا أنطق » فالموقف النفسي للشاعر هو الذى أملى عليه هذا التشبيه الحى وهذه الصورة النابضة ، فهو لايريد بالتشبيه مجرد وصف السكوت ، بل أراد أن يوحى الينا بمعان أخرى أحس بها فى مساءلته للدار ، ولم يجد لها الا هذه الطريقة المعبرة .

ومن خطأ أبى نواس فى التشبيه ، ما عابوه به قوله يصف عـين الاسـد بالجحوظ :

كأنمـا عينـه اذا التهبـت بارزة الجفن عين مخنـوق

وهم يصفون عين الأسد بالغؤور .

ومع ذلك فان اعجاب الجاحظ بأبي نواس يطغى عليه فيقول : « ومع هذا فانا لا نعرف بعد بشار أشعر منه (١) .

ولم يقف الجاحظ فى نقده التطبيقي عند الشعر ، بل نراه يتناول ألوانا من النثر بالنقد أو يذكر ماقيل فيها ، كقوله : « وقالت هند : « كنت والله فى أيام شبابي أحسن من النار الموقدة » وأنا أقول : لم يكن بها حاجة إلى ذكر الموقدة وكان قولها أحسن من النار يكفيها » (٢) .

كأنه يرى أن هناك زيادة فى اللفظ لا ضرورة لها ، ولعل هندا هذه اقتبست من القرآن الكريم فى قول الله سبحانه : « نار الله الموقدة » ولكن شتان بين الموقفين فالآية تهديد للكافرين بالعذاب فى نار لاتخمد ، أما هى فتريد تشبيه نفسها فى الحسن بالنار فى حمرتها وصفائها ، فلا ضرورة لذكر كلمة الموقدة ، كما رأى الجاحظ .

---

١ الحيوان ٤ ـ ٤٥٧ .
٢ الحيوان ٥ ـ ٩٤ .

ومن ألوان النقد التطبيقي عند الجاحظ الموازنة ، وهى أوسع أبواب النقد العربى وكانت موضع اهتمام النقاد والادباء منذ القديم . وفيها تختلف الآراء ويتسع مجال التذوق ولكل أن يستدل على رأيه بما شاء ، وقد يفضل شاعرا على آخر دون أن يدلى بأسباب التفضيل .

« وأنشد أبو عبيدة » :

ديمــة هطــلاء فيها وطــــف ... طبــق الارض تحرى وتــــدر

وكان أبو عبيدة يقدم هذه القصيدة فى الغيث على قصيدة عبيد بن الابرص أو أوس بن حجر التي يقول فيها أحدهما :

دان مسف فويق الارض هيدبــه ... يكاد يدفعه من قام بالــراح
فمن بنجوتــه كمن بعقوتـــه ... والمستكن كمن يمشى بقرواح

وأنا أتعجب من هذا الحكم (١)

فأبو عبيدة يفضل قولا على قول دون إفصاح عن أسبابه ، والجاحظ يعجب من هذا الحكم دون تفنيد له أو إثبات لما يناقضه ، وهى — كما قلت من قبل — الصبغة العامة للنقد العربى القديم ، فى اقتضاب الاحكام وعدم العناية بتعليلها ، مما جعله فى أغلب الاحيان تأثريا بعيدا عن الموضوعية التي تقوم على قواعد وتلتزم بمقاييس .

• ● •

ثم نأتى إلى النقد التاريخى فى كتاب الحيوان ، وقد كان الجاحظ فيه رائدا بصيرا . سبق إلى تحقيق نسبة الشاعر لقائليه ونهج السبيل إلى تبين صحة الشعر أو زيفه.

وقد كان الجاحظ على وعى بما صنعه الرواة من توليد الشعر على ألسنة القدماء وهم الذين لم يتورعوا عن توليد الشعر على ألسنة معاصريهم كخلف الاحمر والاصمعى

١ الحيوان ٦ — ١٣٢ .

« ولقد ولدوا على لسان خلف الأحمر والاصمعي أرجازا كثيرة ، فما ظنك بتوليدهم على ألسنة القدماء (١) .

وكان دافع هؤلاء الرواة إلى توليد الشعر ، وخاصة الجاهلى ، الاحتجاج به أو الاستشهاد بمعانيه على مايريدون ، وكان ذلك التوليد خطرا يهدد التراث العربي كله ، وكانت الحاجة ماسة إلى أن ينهض أهل البصر بالشعر والاصالة فى النقد يفضح هذا الزيف والوقوف فى وجه هذا الزور حتى لايختلف الأمر وتصعب التفرقة بين الصحيح والزائف من هنا هذا التراث ، تماما كما نهض نقاد الحديث الشريف بتلك المهمة فى مجال السنة النبوية واجتهدوا فى الحكم على الاحاديث وبيان درجاتها والتنبيه على الموضوع منها ، ولولا ذلك لسقطت الثقة فى الحديث كله .

ومن هنا كان فضل الجاحظ فى نقد الشعر بهذا المنهج التاريخي وفى الحرص على نسبة الشعر إلى عصوره نسبة صحيحة ، لما لذلك من أهمية فى تاريخ الأدب

ويظهر ذلك فى رد الجاحظ على من أنكروا أن الرمى بالشهب كان إرهاصا بمولد النبي صلى الله عليه وسلم ، وزعموا أن ذلك كان معروفا فى الجاهلية وأحتجوا بأبيات لبشر بن أبى خازم منها :

فجال على نفر كما انقض كوكب وقد حال دون النقع والنقع يسطع (٢)

وبقول أوس بن حجر :

فانقض كالدرى من متحدر لمع العقيقة جنح ليل مظلم (٣)

فأما بشر بن أبى خازم فقد أدرك الفجار ، والنبي صلى الله عليه وسلم شهد الفجار فان كان بشر بن أبي خازم وهؤلاء الذين ذكرتهم قد عاينوا انقضاض الكواكب فليس بمستنكر ان تكون كانت إرهاصا لمن لم يخبر بها ويحتج بها لنفسه

١ الحيوان ٤ ـ ١٨١ .
٢ الحيوان ٦ ـ ٢٦٣ .
٣ الحيوان ٦ ـ ٢٧٤ .

فكيف وبشر بن أبى خازم حى فى أيام الفجار التي شهدها النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه وأن كنانة وقريشا به نصروا .

فأما قوله :

فانقض كالدرى من متحدر لمع العقيقة جنح ليل مظلم

فخبرني أبو اسحق أن هذا البيت فى أبيات أخر كان أسامة صاحب روح ابن أبى همام هو الذى كان ولدها ، فان اتهمت خبر أبى اسحق فسم الشاعر وهات القصيدة فانه لا يقبل فى مثل هذا الا بيت صحيح الجوهر من قصيدة صحيحة لشاعر معروف والا فان كل من يقول الشعر يستطيع أن يقول خمسين بيتا كل بيت منها أجود من هذا البيت .

وأما ما أنشدتم من قول أوس بن حجر :

فانقض كالدرى يتبعه نقع يثور تخاله طنبا

فهذا الشعر ليس يرويه لأوس الا من لايفصل بين شعر أوس بن حجر وشريح بن أوس ! وقد طعنت الرواة فى هذا الشعر الذى اضفتموه إلى بشر بن أبى خازم من قوله :

والعير يرهقها الحمار وجحشها ينقض خلفهما انقضاض الكوكب

فزعموا أنه ليس من عادتهم أن يصفوا عدو الحمار بانقضاض الكوكب ولابدن الحمار ببدن الكوكب ،

وقالوا : فى شعر بشر مصنوع كثير مما قد احتمله كثير من الرواة على أنه من صحيح شعره ، فمن ذلك قصيدته التي يقول فيها :

فرجى الخير وانتظرى ايابى اذا ما القارظ العنزى آبا (١)

ثم يقول :

« وأما ما رويتم من شعر الأفوه الأودى فلعمرى إنه لجاهلى ، وما وجدنا أحدا

---

١ الحيوان ٦/٢٧٨ — ٢٨٠ .

من الرواة يشك فى أن القصيدة مصنوعة وبعد فمن أين علم الأفوه أن الشهب التي يراها انما هى قذف ورجم ، وهو جاهلى ، ولم يدع هذا أحد قط الا المسلمون فهذا دليل آخر على أن القصيدة مصنوعة » (٢) .

وهكذا يتضح لنا منهج الجاحظ فى النقد التاريخى للشعر ، فهو يعول على صحة الرواية أولا ، وقد كان لقرب عهده بحفظة الشعر الجاهلى ومعاصرته لكثير من أئمة الرواية ، قادرا على تبين الحق من الباطل فى نسبة الشعر إلى اصحابه ، كما كان المعتزلة أهل عناية برواية الشعر والتثبت من قائليه .

ثم يلجأ الجاحظ إلى تحليل المعاني وبيان علاقتها بالعصر الذى ينسب الشعر اليه ، وذلك تأكيد وتقوية لمنهج النقد التاريخي وبه يطمئن الناقد إلى النتيجة التي ينتهى اليها .

• ◉ •

والمهم أن الجاحظ كان أول من نهج هذا المنهج فى تحقيق الشعر ونقده واليه يرجع الفضل فى الدعوة إلى التثبت فى رواية الشعر قبل الاستدلال له كما كان صريحا فى النعى على الرواة الذين تزيدوا على الشعراء ودسوا عليهم الشعر لأغراضهم دون نظر إلى ما يجره ذلك على الشعر العربى من فساد وتحريف .

ومن هنا نرى أن الجاحظ قد سبق كل أولئك الذين يزعمون أنهم الذين أثاروا قضية انتحال الشعر الجاهلى وأنهم الذين وضعوا المقاييس لبيان الصحيح والزائف من هذا الشعر .

والفرق بين الجاحظ وبينهم أنه كان موضوعيا فى نظره إلى القضية ، بريئا من التحامل والهوى ، وأنه اتبع فى ذلك أعدل منهج وأقربه إلى الصواب .

• ◉ •

وبعد : فهذا هو جانب النقد الادبى فى كتاب الحيوان بأنواعه الثلاثة : النظرى والتطبيقي والتاريخى .. نلحظ فيه ذوق الجاحظ وأصالته ونرى فيه حلقة هامة فى تطور النقد العربى حين كان يحاول أن ينتقل من الذاتية إلى الموضوعية ، وأن يبني لنفسه أسسا يقوم عليها وقواعد يلتزم بها .

١ الحيوان ٦/٢٨٠ ـ ٢٨١ .